إبداع الجاحظ في كتاب البخلاء

د: إحسان النص(*)

كتاب (البخلاء) للجاحظ عمرو بن بحر (١٥٩ - ٢٥٥هـ) من أمتع كتب الجاحظ، بل هو أمتع كتاب في وصف البخل والبخلاء في جميع آداب الأمم. وقد ألّفه الجاحظ استجابة لطلب أحد أصحابه، ولم يذكر لنا اسمه، وكان من عادة الجاحظ تأليف كتب في طوائف من الناس، منها مثلاً كتاب في أخبار المعلمين ونوادرهم، وكتاب في حيل اللصوص.

ولم تكن غاية الجاحظ من تأليفه هذا الكتاب التعريض بطائفة من خصومه، آية ذلك أنه تحدث عن بخل جماعة من أصحابه المعتزلة، منهم على الأسواري وأبو الهُذيل العلاّف. ولم تكن غايته اجتماعية أخلاقية وهي التنفير من البخل والحض على الكرم وتصوير مجتمع الجاحظ إنما يستخلص مما ورد في الكتاب عرضًا وإنما كان هدفه من تأليف كتابه هذا فنيًّا محضًا، وهو إمتاع قُرّائه. وهو بطبيعته ميّال إلى الدعابة والظرف، وإلى مزج الجدّ بالهزل. وقد بيّن لنا غايته من تأليفه كتابه هذا في مقدمة الكتاب، قال: (وذكرت، حفظك الله، أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار، وفي تفصيل سُرّاق الليل، وأنك سددت به كل خلل، وحصّنت به كل عورة. وتقدمت - بما أفادك من لطائف الخُدع، ونبّهك عليه من غرائب الحيل - فيما عسى ألاّ

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

يبلغه كيد، ولا يجوزه مكر. وذكرت أن قدر نفعه عظيم، وأن التقدم في درسه واجب. وقلتَ: اذكر لي نوادر البخلاء، واحتجاج الأشحّاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في غياب الجدّ، لأجعل الهزل مستراحًا، والرّاحة جمامًا. فإن للجدّ كَدًّا يمنع من معاودته، ولا بدّ لمن التمس نفعه من مراجعته. وذكرتَ مُلح الحزامي، واحتجاج الكنديّ، ورسالة سهل بن هارون، وكلام ابن غزوان، وخطبة الحارثي، وكلّ ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم، ولِمَ سَمّوا البخل إصلاحًا، والشُّحَّ اقتصادًا، ولِمَ حامَوا عن المنع، ونسبوه إلى الحزم، إلخ..) ثم يقول: (ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء تَبَيُّن حجة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد).

ويقول في المقدمة أيضًا: (لأن هاهنا أحاديث كثيرة متى أطلعنا منها حرفًا عُرف أصحابها، وإن لم نسمّهم، ولم نرد ذلك بهم. وسواء سمّيناهم، أو ذكرنا ما يدلّ على أسمائهم، منهم الصديق، والوليّ، والمستور، والمتجمل، وليس يفي حسن الفائدة لكم، بقبح الجناية عليهم. فهذا باب يسقط البتّة، ويختلّ به الكتاب لا محالة، وهو أكثرها بابًا، وأعجبها منك موقعًا. وأحاديث أُخر ليس لها شهرة، ولو شُهرت ما كان فيها دليل على أربابها، ولا هي مقيدة أصحابها، وليس يتوفر أبدًا حسنها، إلاّ بأن يعرف أهلها... وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، إمّا بالخوف منهم، وإما بالإكرام لهم).

فالجاحظ يرى أن ذكر اسم البخيل يجعل النادرة أوقع في النفس، لاتصالها بالواقع.

ولحرص الجاحظ على الطابع الواقعي فإن الأخبار والنوادر التي أوردها في كتابه مستمدة كلها من الواقع الذي شهده أو سمع به، وليست من صنع الخيال. فكتاب الجاحظ يصور واقع مجتمعه، وليس فيه إلا ما يمكن حدوثه، دون تزيّد أو غلوّ، إلا ما يتطلبه العرض الفنّي والرغبة في الإمتاع. أما الأحاديث التي لا يمكن وقوعها أو التي تجنح إلى التزيّد والغلوّ، فلم يعرض لها. وقد وضّح مذهبه هذا بعد أن أورد خبر بخيل مسرف في البخل، كان الدرهم إذا دخل كيسه لم يخرج منه بعد ذلك، فلمّا مات وظنَّ أهله أنهم قد استراحوا منه، قدم ابنه، فاستولى على ماله وداره ثم قال لأهله: ما كان أدم أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام، فقالوا: كان يتأدم بجبنة عنده. قال أرونيها. فإذا فيها حزّ كالجدول من أثر مسح اللقمة. قال: ما هذه الحفرة؟ قالوا: كان لا يقطع الجبن، وإنما كان يمسح على ظهره، فيحفر كما ترى. قال: فهذا أهلكني، وبهذا أقعدني هذا المقعد، ولو علمت ذلك ما صلّيت عليه. قالوا: فأنت كيف تريد أن تصنع؟ قال: أضعها من بعيد، فأُشير إليها باللقمة.

يعلّق الجاحظ على هذه القصة فيقول: ولا يعجبني هذا الحرف الأخير، لأن الإفراط لا غاية له، وإنما نحكي ما كان في الناس، وما يجوز أن يكون فيهم مثله، أو حجة أو طريقة. فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره.[1]

فالجاحظ لا يذكر إلاّ ما وقع أو ما يمكن وقوعه، ولا يجنح إلى اختراع قصص لا يصح أن تحدث في الواقع، ولا يعمد إلى تخيّل بخلاء لا يمتون إلى واقع الحياة، وهو بهذا النهج يخالف مؤلفي قصص البخلاء الذين اخترعوا بخلاء يتجاوز بخلهم ما يمكن وقوعه صنيع الأديب الفرنسي موليير Molière

(١) البخلاء ص ١١٩.

في مسرحية (البخيل)، فشخصية البخيل أرباغون harpagon التي اخترعها لا تمتّ إلى الواقع بصلة.

ومن هذا القبيل أيضًا رواية (أوجيني غرانده) Eugénie grandet لبلزاك balzac فشخصية البخيل فيها بعيدة عن الحياة والواقع.

تحدث الجاحظ في كتابه هذا عن طوائف من البخلاء، وبدأه برسالة الكاتب سهل بن هارون إلى بني زياد حين ذمّوا مذهبه في البخل، ثم أفرد بابًا لأهل خراسان، ولأهل مرو خاصة، لما عُرفوا به من البخل، حتى جعل ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها، وجعل البخل طبعًا في صغارهم وكبارهم.

ومن أطرف أخبار بخلاء مرو قصة المروزي والعراقي. قال الجاحظ: (ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر، وذلك أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحجّ ويتّجر، وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه ويكفيه مؤنته. ثم كان كثيرًا ما يقول لذلك العراقي: ليت أني قد رأيتك بمرو حتى أكافئك لقديم إحسانك، وما تجدد لي في كل قدمة. فأما هاهنا فقد أغناك الله عني. قال: فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية فكان مما هوّن عليه مكابدة السفر، ووحشة الاغتراب، مكان المروزي هنالك. فلّما قدم مضى نحوه في ثياب سفره، وفي عمامته وقَلنسوته وكسائه، ليحطّ رحله عنده، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه. فلّما وجده قاعدًا في أصحابه أكبّ عليه وعانقه، فلم يره أثبته، ولا سأل به سؤال من رآه قط. قال العراقي في نفسه: لعل إنكاره إيّاي لمكان القناع، فرمى بقناعه، وابتدأ مساءلته، فكان له أنكر. فقال لعله أن يكون إنما أُتي من قبل العمامة، فنزعها ثم انتسب، وجدَد مساءلته، فوجده أشد ما كان إنكارًا. قال: فلعله إنما أُتي

من قبل القلنسوة. وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلّق به المتغافل والمتجاهل، فقال: لو خرجت من جلدك لم أعرفك[٢].

ولما فرغ من أخبار البخلاء من أهل خراسان، عقد بابًا للمسجديين من أهل البصرة، وكانت جماعة من الناس تجتمع في مسجد البصرة، (وهم ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، من أصحاب الجمع والمنع. وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحابّ، وكالحلف الذي يجمع على التناصر. وكانوا إذا التقوا في حلقتهم تذاكروا هذا الباب، وتطارحوه وتدارسوه التماسًا للفائدة. واستمتاعًا بذكره) [٣].

ثم أخذ الجاحظ يروي ما ابتكره هؤلاء من أساليب للاقتصاد في النفقة، ومن طريف هذه القصص خبر مُعاذة العنبرية.

اندفع شيخ منهم – أي من المسجديين – فقال: لم أر في وضع الأمور مواضعها، وفي توفيتها غاية حقوقها، كمعاذة العنبرية. قالوا: وما شأن معاذة هذه؟ قال: أهدى إليها العام ابنُ عم لها أُضحيّة، فرأيتُها كئيبة حزينة، مفكّرة مُطرقة. فقلت لها: ما لك يا معاذة؟ قالت: أنا امرأة أرملة، وليس لي قَيِّم، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي. وقد ذهب الذين كانوا يدبّرونه ويقومون بحقّه، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها، وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئًا لا منفعة فيه، ولكن المرء يعجز لا محالة، ولست أخاف من تضييع القليل، إلا أنه يجرّ تضييع الكثير.

(٢) البخلاء ص ١٧.

(٣) نفسه ص ٢٤.

أما القَرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يُجعل منه كالخُطّاف، ويُسَمَّر في جذع من أجذاع السقف، فيعلّق عليه الزّبل والكيران[٤]، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان[٥]، والحيّات وغير ذلك. وأما المِصران فإنه لأوتار المندفة، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة. وأما قحف الرأس واللَّحيان وسائر العظام فسبيله أن يُكسر بعد أن يُعرق، ثم يطبخ، فما ارتفع من الدّسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك. ثم تُؤخذ تلك العظام فيوقَد بها، فلم ير الناس وقودًا قط أصفى ولا أحسن لهبًا منه، وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر، لقلة ما يخالطها من الدخان. وأما الإهاب فالجلد نفسه جراب، وللصوف وجوه لا تُعدّ. وأمّا الفَرْث والبعر فحطب إذا جُفف عجيب.

ثم قالت: بقي علينا الآن الانتفاع بالدم. وقد علمت أن الله تعالى، عز وجلَّ لم يحرّم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه، وأنّ له مواضع يجوز فيها ولا يُمنَع منها. وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به صار كيَّةً في قلبي وقذىً في عيني وهَمًّا لا يزال يعودني.

قال: فلم ألبث أن رأيتها قد تطلّقت وتبسّمت. فقلت: ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأي في الدم. قالت: أجل، ذكرتُ أن عندي قدورًا شاميّة جُددًا، وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ ولا أزيد في قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم. وقد استرحتُ الآن إذ وقع كلّ شيء موقعه.

(٤) الزبل جمع زَبيل: الجراب والقفة. الكيران جمع كير: الزقّ.

(٥) بنت وردان: دويبّة كريهة الرائحة.

قال: ثم لقيتها بعد ستة أشهر، فقلت لها: كيف كان قديد تلك؟ قالت: بأبي أنت، لم يجئ وقت القديد بعدُ، لنا في الشحم والأُلية والجُنوب والعظم المعرَق وفي غير ذلك معاش، ولكل شيء إبّان.

(فقبض أحد الحاضرين) قبضة من حصى، ثم ضرب بها الأرض، ثم قال: لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين). (٦)

وبعد أن فرغ الجاحظ من قصص المسجديين اختار جماعة من البخلاء المشهورين، فكسر لكل منهم بابًا، منهم أحمد بن خلف اليزيدي، وهو من أصدقاء الجاحظ، وكان من الموسرين ولكنه كان مع ذلك بخيلاً. فروى الجاحظ جانبًا من أخبار بخله، ثم ختم حديثه عنه بقوله: «ولا تقولوا الآن قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه، بل ما تناوله بالسّوء حتى بدأ بنفسه، ومتى كانت هذه صفته، وهذا مذهبه، فغير مأمون على جليسه، وأيّ الرجال المهذّب، هذا والله الشُّنوع والتُّبوع والبذاء وقلة الوفاء.

اعلموا أني لم ألتمس بهذه الأحاديث عنه إلا موافقته وطلب رضاه ومحبته. ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دَسيسًا من قبله، وكمينًا من كمنائه، وذلك أن أحب الأصحاب إليه أبلغُهم قولاً في إيئاس الناس ممّا قبلَه، وأجودهم حسمًا لأسباب الطمع في ماله. على أني إن أحسنت بجُهدي، فسيجعل شكري موقوفًا، فإن جاوز كتابي هذا العراقَ شكر، وإلاّ أمسك»(٧). فالجاحظ يرى أن تشهيره ببخل صديقه أحمد بن خلف لا يسيء إليه، بل

(٦) البخلاء ص ٢٦.

(٧) البخلاء ص ٣٤.

على النقيض فإن حديثه عن بخله يبعد عنه الناس الطامعين في طعامه، فهو لذلك يستوجب شكره.

ولما فرغ من حديث ابن خلف انتقل إلى الحديث عن خالد بن يزيد، مولى المهالبة، وهو خالويه المكدّي. وكان مع ثروته العظيمة مفرطًا في البخل. فلمّا دنت منيّته أوصى ابنه بالحرص والبخل، فلمّا مات جاء ابنه أبخل منه.

وفي حديث خالويه وردت ألفاظ تطلق على أنواع اللصوص، ومنها: المكدّي والكاجار والكاغاني والعوّاء والأسطيل والمزيدي والمستعرض(٨). وورود هذه الألفاظ وغيرها من أسماء الرياحين والملابس والأدوية والمأكولات يطلعنا على ما لكتاب البخلاء من شأن في إغناء اللغة العربية بألفاظ جديدة ومصطلحات كانت شائعة في عصره. (ص ٣٩).

وفي الكتاب أخبار متناثرة حول بخلاء عرفهم الجاحظ وحضر موائدهم، فهم كانوا على ثرائهم بخلاء، وإنما يدعون الناس إلى موائدهم لإعلاء مكانتهم. ويرى الجاحظ أن الوصف لا يفي بالغرض، والمشاهدة العيانية هي التي لها أثرها في النفس، ووضح هذا في ختام حديثه عن أحد البخلاء بقوله:

(٨) المكدّي: مصطلح يطلق على من يحتال على كسب رزقه بشتى الوسائل غير المشروعة. وقد شرح الأستاذ طه الحاجري دلالات أسماء اللصوص في ملحق الكتاب، فكلمة كاجار تطلق على بعض القبائل التركية الرحالة، وكلمة (غجر) صورة منها. والمستعرض: من يستعرض الناس طلبًا لما عندهم. والكاغاني: الذي يتجنن ويتفالج قصد استعطاء الناس إلخ...

«وهذا وشبهه إنما يطيب جدًا إذا رأيت الحكاية بعينك، لأن الكتاب لا يصوّر لك كل شيء، ولا يأتي على كنهه وعلى حدوده وحقائقه»[٩].

ومن البخلاء الذين تحدث عنهم أبو محمد الخزامي، كاتب مويس بن عمران، «فإنه كان أبخل من برأ الله»، وحين اعترض الجاحظ على بخله، وعجب من إطلاق الناس لفظ البخيل عليه أجاب بقوله: «لا أعدمني الله هذا الاسم، لأنه لا يُقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال، فسلّم إليّ المال وادعُني بأي اسم شئت» ويصف الجاحظ بخله بقوله: «أما الأخذ فهو ضالته وأمنيته، وإنه لو أُعطي أفاعي سجستان، وثعابين مصر، وحَيّات الأهواز لأخذها»[١٠].

ومن بخلائه: الحارثي ويعقوب بن إسحاق الكندي – وهو على ما رجحه الحاجري غير الكندي الفيلسوف، وقصة الكندي من أطرف ما اشتمل عليه كتاب البخلاء ومن حديثه عنه قوله: «كان الكندي لا يزال يقول للساكن، وربما قال للجار: إن في الدار امرأة بها حمل، والوُحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة، فإذا طبختم فردّوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة، فإن النفس يردّها اليسير، فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامي إياك، فكفّارتها إن أسقطت غُرّة: عبد أو أمة، ألزمت ذلك نفسك أم أبيت. قال: فكان ربما يوافي إلى منزله من قصاع السُكّان والجيران ما يكفيه الأيام[١١].

(٩) البخلاء ص ٥١.

(١٠) نفسه ص ٥٥.

(١١) البخلاء ص ٧٠.

وكان يفرض على سكان داره شروطًا منها: أن يكون له روث الدابّة وبعر الشاة، ونشوار العلوفة، وألاّ يلقوا عظمًا، ولا يخرجوا كُساحة، وأن يكون له نوى التمر، وقشور الرمّان، والغَرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته. وكان في ذلك يتنزّل عليهم، فكانوا لطيبه وإفراط بخله، وحسن حديثه يحتملون ذلك.

قال معبد: فبينا أنا كذلك، إذ قدم ابن عمّ لي ومعه ابن له، وإذ رقعةٌ منه قد جاءتني: «إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين، احتملنا ذلك، وإن كان إطماع السُكّان في الليلة الواحدة يجرّ علينا الطمع في الليالي الكثيرة». فكتبت إليه: «ليس مقامهما عندنا إلا شهرًا أو نحوه». فكتب إليّ: «إن دارك بثلاثين درهمًا، وأنتم ستة، لكل رأس خمسة، فإذ قد زدت رجلين. فلا بدّ من زيادة خمستين، فالدار عليك من يومك هذا بأربعين». فكتبت إليه: «وما يضرّك من مقامهما؟، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال، وثقل مؤنتهما عليّ دونك؟» فكتبت إليّ ... «الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة، وهي قائمة معروفة. من ذلك: سرعة امتلاء البالوعة، وما في تنقيتها من شدّة المؤنة. ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت كثر المشي على ظهور السطوح المطيّنة، وعلى أرض البيوت المجصّصة، والصعود على الدُّرج الكثيرة، فينقشر لذلك الطين، وينقلع الجِصّ، وينكسر العَتب، مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء، وتكسّرها لفرط الثقل. وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال وجذبُ الأقفال، تهشمت الأبواب، وتقلعت الرزّات. إلخ...».

ويمضي بعد ذلك الكندي في بيان ما يطرأ على المنزل من ضرر لزيادة عدد السكان، ويطيل في ذلك فلا يدع شيئًا مما يطرأ على الدار إلا ذكره. وفي قصته بعد ذلك كلام طويل في الدفاع عن البخل وإطراء الغنى والاقتصاد(١٢).

إن أبرز ما يلفت النظر في كتاب البخلاء إبداعه في وصف هيئات البخلاء وحركاتهم لدى تناول الطعام، فكأنه آلة مصوّرة تنقل صور شخصياته بدقة عجيبة تجعلنا نتصور هيئة البخيل أمامنا، وليس ثمة من يضارع الجاحظ في وصف هيئات الأشخاص الذين يتحدث عنهم، اسمعه يصف عليًّا الأسواري حين يأكل – وهو من أصدقائه المعتزلة – يقول (على لسان الحارثي) «كان إذا أكل ذهب عقله، وجحظت عينه، وسكر، وسدر، وانبهر، وتربّد وجهه، وعصب، ولم يسمع، ولم يبصر. فلما رأيت ما يعتريه وما يعتري الطعام منه، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلّى (الفول)، ولم يفجأني قط وأنا آكل تمرًا إلا استفّه سفًّا، وحساه حسوًا، وزدا به زَدوًا، ولا وجده كنيزًا إلا تناول القطعة كجُمجمة الثور، ثم يأخذ بحضنيها ويقلها من الأرض، ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضًا، ورفعًا وخفضًا، حتى يأتي عليها جميعًا إلخ»(١٣).

ولا يقف وصف الأشخاص لدى الجاحظ عند الهيئة الظاهرة بل يتجاوزها إلى وصف دخائل النفوس، وذلك من طريق ملاحظة الهنات التي تبدو من البخيل، ولا سيما حين يتظاهر بالكرم، فيدعو الناس إلى طعامه، فهو يستخلص من هذه الهنات ومن حركات البخيل ما يدل على دخائل نفوسهم،

(١٢) البخلاء ص ٧٠.

(١٣) نفسه ص ٦٩.

ولكنه لا يتحدث عن هذه الدخائل، وإنما يترك للقارئ استخلاصها من خلال الهنات التي تبدو منه والحركات الظاهرة التي تنبئ بما يختفي وراءها. ولو جهد البخيل في إخفاء بخله، فإن حركاته اللاشعورية تنم عن دخيلة نفسه.

وكتاب البخلاء إلى ذلك – معرض لسخرية الجاحظ، السافرة تارة والخفية تارة أخرى، ولا يجاري الجاحظ في فن السخر أحد من أدبائنا القدامى. على أن سخريته في هذا الكتاب ليس مصدرها الحقد أو الرغبة في الانتقام، وإنما هي سخرية ضاحكة نابعة من نفسه المرحة الميالة إلى الظرف والدعابة، ولا تظهر سخريته الحاقدة إلا في رسالة (التربيع والتدوير) التي وجهها إلى الكاتب أحمد بن عبد الوهاب، وكانت بينهما – على ما أرجح – خصومة شخصية.

وكتاب البخلاء ليس وقفًا كله على قصص البخلاء، فقد أفرد الجاحظ فيه بابًا للأطعمة المعروفة لعهده، ومن مميزات هذا الكتاب أننا نجد فيه ألفاظًا كثيرة جدًّا لأنواع الأطعمة والملابس والرياحين والأدوية والآلات، وهذه الألفاظ تعد إضافة غنية للغة العربية لأن أكثرها غير مذكور في معاجم اللغة، وفي الكتاب ألفاظ كثيرة لأنواع اللصوص والصعاليك والسُرّاق كانت معروفة في زمنه.